

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) المجلد 21 العدد 01 2025/01/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الماء والسحر: مقارنة أنثروبولوجية دينية

**Water and Magic: A Religious Anthropological Approach**

الأستاذ الدكتور بن معمر عبد الله<sup>1\*</sup>

<sup>1</sup> جامعة تلمسان، الجزائر

abdallah.benmammar@mail.univ-tlemcen.dz

الأستاذة الدكتورة نعيمة رحمانى<sup>2</sup>

<sup>2</sup> جامعة تلمسان، الجزائر

naima.rahmani@mail.univ-tlemcen.dz

تاريخ القبول: 2024/12/23

تاريخ الاستلام: 2024/11/22

الملخص

لم يشكل الماء موضوعا للدراسات الأنثروبولوجية إلا مع حلول سنوات الستينيات. لقد كان مهملًا في الأعمال الكلاسيكية وربما هذا راجع إلى عدم تقدير أهميته في حياة الإنسان والمجتمعات في تلك الحقبة السابقة. ولكن كثرة الدراسات اللاحقة تجعلنا نتكلم عن أنثروبولوجيا للماء لها مفاهيمها الخاصة. ونظرا لأهمية الماء الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والرمزية فقد جرى ربط الماء بهذه الميادين. ونحن في هذا المقال سنعالج الماء ويصفه أحد عناصر السحر. إننا أمام تقاطع حقلين أنثروبولوجيين: أنثروبولوجيا الماء والأنثروبولوجيا الدينية ولذلك سنبين كيف يتدخل الماء في الممارسات السحرية.

الكلمات المفتاحية: الماء - السحر - الدين

### Abstract

Water did not become a subject of anthropological studies until the 1960s. It was neglected in classical works, perhaps due to the lack of appreciation of its importance in human life and societies in that earlier period. However, the abundance of subsequent studies makes us talk about an anthropology of water with its own concepts. Given the economic, social, political and

---

\* المؤلف المرسل: أ.د./ بن معمر عبد الله، الايميل: abdallah.benmammar@mail.univ-tlemcen.dz

symbolic importance of water, water has been linked to these fields. In this article, we will deal with water as one of the elements of magic. We are at the intersection of two anthropological fields: the anthropology of water and the anthropology of religion (Considering that magic is one of the topics of this field) , and therefore we will show how water intervenes in magical practices. Keywords: Water - Magic - Religion

#### مدخل:

موحل أو نقّي، جارٍ أو راكّد، طوفاني أو مُردّد (كثير الرذاذ)، طبيعي أو غازي،.. الماء يظهر في العالم الطبيعي تحت المظاهر المختلفة. فهو نافع، عندما يروي من العطش ويبرد، ويصير مضرا عندما يجتاح ويغرق. على هذا السيل من المظاهر والخصائص يجيب التنوع العجيب للممارسات، والمعارف، والرموز والأحلام التي يثيرها الماء على سلم المجتمعات (التقليدية خاصة). صالح للشرب، الماء هو أيضا وسيلة إنتاج، مصدر للصراعات، ذلك أن ندرة الماء يمكن أن تشعل الحروب وتسمى حروب الماء. فصراعات الشرق الأوسط حول الماء هي صراعات قبل كل شيء صراعات قديمة مناطقية ودينية كما تؤكد مروى داودي حسب فايان فاتو (Fabienne Wateau, 2013). ولكنه مصدر للتعاون أيضا بين الناس وبين الجماعات. وهو عنصر أساسي للصحة الجسدية ولللباس، رمز للطهارة والكرم، موضوع للحج وموضوع للتراث عندما نريد جلبه، وهو قبله للصيغ والشعائر التكفيرية عندما نريد أن نحتمي منه. استدعاء استعمالات الماء وصوره يقودنا نحو حقائق وتمثيلات غامضة ومتناقضة. فتارة يجمع الماء عندما يتعلق الأمر بكفاح من أجله أو الكفاح ضده، وتارة يغرق عندما يتعلق الأمر بتقاسم استعماله بشح. وتارة يجمع حول منابعه المتفجرة أو ينابيعه العجيبة، وتارة هو حجة للخصومات والخروقات عندما نلنخه من أجل الانتقام من الغير أو عندما نغتسل به (Christian Bromberger, Jean-Noel-Pelen, 1985, pp. 7-14).

الماء هو أولا وسيلة إنتاج في ميدان الزراعة والصناعة والنقل. فهو يستعمل لسقي الحقول والبساتين، وهو مصدر طاقة بالنسبة للصناعات المختلفة: الصحانة، صهر الحديد، مصانع الجوخ، المنتشرة الخ أو هو أيضا وسيلة للعمل على مادة، بالنسبة لصناعة الفخار، والمدابغ الخ. الماء هو مصدر رهانات ومنافع، وصراعات أو ممارسات التعاون، ولكنه أيضا وسيلة لإعادة الإنتاج عندما تشربه الحيوانات والبشر أو عندما

يستعمل من أجل تجديد الثياب. الماء ينظم الفضاء والزمن، الغسل والري هي أفعال دورية تقطع المدة، بداية ونهاية دورة (يومية، فصلية، سنوية) الميلاد والموت. مثل الأمطار التي تعلن عن تغيرات الفصول أو المرور من دورة من المناشط الى أخرى. أغلب استعمالات الماء ضمناً أو صراحة هي علامات على التحول. استعمالات الماء تنظم الزمن المنزلي وتنظم كذلك زمن العمل، مثلاً دورة الأمطار التي تتحكم في المناشط. علامة على الانتقال ورمز للطهارة، الماء هو أيضاً مرتبط بطقوس العبور التي تقطع مراحل الحياة (التعميد، الموت) أو التي تضم مؤقتاً فرداً الى جماعة أجنبية (كأس الماء في البحر المتوسط الذي يعطى للضيف، بعد أول فعل من أفعال الكرم).

الإنسان يقيم مع الماء علاقة مزدوجة ومعقدة، التي تجمع لاعتبارات اقتصادية ونفعية، وبالطبع أوجها صحية واجتماعية. الماء هو مصدر الصحة، والأمن والسلامة العمومية، ولكن أيضاً أخطار الأمراض والفيضانات المميتة أحياناً، إنه يحمل أيضاً أبعاداً إيكولوجية وبيئية، الماء هو أيضاً حيوي، بل أكثر من ذلك، الأرض ذاتها هي للحيوان والنبات ولكن أيضاً للإنسان. ولكن من المهم أيضاً قياس الأهمية القيمة والثقافية بل والروحية التي ترتبط بالماء. في الحضارات الأكثر قدماً، الماء كان مقدساً، بل مصدر الحياة ذاتها، واحتل إذن مكاناً أساسياً في كل الميثولوجيات وديانات العالم، قيمته الرمزية في المخيال البشري منحتة ثقلاً عاطفياً خاصاً لا يجب تجاهله.

الماء كان موضوعاً للأساطير بالنسبة للسومريين والأكاديين. أبسو Apsu كان هو العماء الأولاني، محيط من الماء الهادئ الداعم للأرض التي اتحدت بالإلهة تيامات التي أرسلت الماء الملطخ في بداية الزمان.

في التقليد اليهودي المسيحي، الماء يحتل مكانة مهمة في كتاب التكوين في الكتاب المقدس: "في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض جدبة وخالية على وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه" (التكوين 1-1-2) في الإسلام الماء خلقه الله قبل خلق السموات والأرض<sup>†</sup>.

---

<sup>†</sup> قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا بهو، حدثنا عماد سلمة، حدثنا أبو يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حدى، عن عمه أبي زوين لقبط بن عامر العقيلي أنه قال: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: كان في سماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء" أخرجه الترميذي وابن ماجه

الماء هو في نفس الوقت خصب ومخصَّب، كما يشهد على ذلك العديد من اشكال الحج التي تقوم بها النساء الشابات لمنابع العيون. في كل مكان من العالم، الماء يستعمل من أجل التطهير الروحي للأشياء والأشخاص.

التعميد المسيحي هو شكل من أشكال التطهير، والتعميد توجد طقوس مشابهة له في مصر واليونان والشرق القديم، والفكرة التي تقف وراء التعميد هي أنه لا أحد يمكنه أن يدخل مملكة السموات من دونه. والتعميدات الأولى كانت تجري في الخارج، في الينابيع والوديان، ثم بنيت مواقع خاصة للتعميد. في مجال الثقافة البشرية، الماء ارتبط غالبا بالعديد من الرموز التقليدية بعضها ايجابي وبعضها الاخر سلبي. في كل الأزمنة وفي العالم أجمع، الماء يمثل الحياة، الخصوبة بشكل عام. ولكن أيضا التطهير والتغير من حالة الى أخرى.

ولكن الماء يمكن أن يجلب الموت، بالنسبة للرومان، المرور من الحياة الى الموت كان يرمز إليه باجتياز نهر أسطوري هو ستيكس Styx الصورة العالمية للظوفان تمثل الدمار والحراب. لأن البشر كانوا دائما بحاجة الى شرب الماء كل يوم من أجل البقاء، ولأن أغلب أنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تتطلب الماء، الشعوب كانت دائما تنشأ وتتطور حيثما يكون من السهل الحصول على المورد الثمين، بالقرب من نهر أو بركة بجانب العيون والابار أو أيضا بجانب البحر. الماء أساسي أيضا بالنسبة للطبيعة كما الانسان، من دونه لا حياة ممكنة للنبات والحيوان والأنظمة البيئية.

حضارات عظمت تطورت وازدهرت على ضفاف الأنهار الكبرى. الحضارة المصرية قامت على ضفاف النيل. النهر منح الناس في نفس الوقت الغذاء والشراب، وكذا وسائل النقل والتجارة. في هذه الفترة كان الماء يحتل أهمية حيوية واستراتيجية ولا يبدو أنه سيفقدها يوما ما. ولهذا فإن الحضارات الكبرى سميت بحضارات الماء، وقد اتخذت في العادة أسماء الأنهار التي قامت على ضفافها. هكذا نسمع بحضارة النيل، وحضارة وادي الرافدين بالعراق، حضارات الازتيك والإنكا بأمريكا الجنوبية قامت على السهول الساحلية تبين أن تطورها كان مرتبطا مباشرة بقدرتها على مراقبة وإدارة المياه بفعالية. والعكس، ضعف المراقبة الاجتماعية على الماء سبب آليا انحدارها واختفاءها الحتمي.

1- أنثروبولوجيا الماء

1-1. نبذة تاريخية

الأنثروبولوجيا اهتمت منذ زمن بعيد بعلاقات الانسان بالماء لأن الماء أساسي للحياة وللعديد من الوظائف اليومية للمجتمع. إدارة الماء وخاصة في المناخات الجافة، لعبت دورا مهما في النظريات الانثروبولوجية الأولى حول انبثاق الدولة وأشكال أخرى من التنظيم الاجتماعي المعقد. مقاربات هيدرواجتماعية وسوسيوهيدرولوجية حديثة جدا تناولت الماء في ارتباطه الوثيق بالعمليات والممارسات الاجتماعية.

هذه المقاربات أدت الى ولادة مفاهيم عديدة: "منظر مائي"، "أحواض منحدره" " انظمة مائية" "مناظر سائلة" و"مناطق سوسيو مائية" وأشارت إلى أهمية فهم التوزيع المكاني للماء والعوامل الاجتماعية والمادية التي تؤثر على هذا التوزيع. الانثروبولوجيا تعالج الماء تحت العديد من الأبعاد والعديد من الأشكال من أجل فهم كيف أن الناس يعطون المعنى للماء ويعيشونه.

البحث الانثروبولوجي التطبيقي (الانثروبولوجيا التطبيقية) لا يبحث فقط عن تقديم فهم أكثر عمقا ولكن أيضا عن تقديم توصيات وحلول ملموسة على عديد الانشغالات والأسئلة والمشاكل التي تواجهها المجتمعات فيما يتعلق بالماء (Mathew wilfong et al., 2023).

هناك عدة أشكال يتخذها الماء، سيمونطيقية، وتاريخية وسياسية ومادية، ولذلك فإن أنثروبولوجيا الماء تتخذ التعدد المعرفي كنقطة انطلاق للتحليل، ورغم أنها لم تنضج إلا حديثا فإنها واسعة، وهي تعقد نقاشات معمقة مع باحثين في الجغرافيا وفي العلوم وفي التكنولوجيا (Andrea Ballester, 2019) وأنثروبولوجيا الماء هي ميدان ينصب نفسه علائقيا يحاول تجاوز التمييز طبيعة/ ثقافة، بتذكيرنا أن الأوجه الاجتماعية والإيكولوجية للماء لا يمكن الفصل بينها إلا بنوع من الاتفاق السيمونطيقية (Andrea Ballester, 2019).

إن أنثروبولوجيا الماء تقوم على مسلمتين أساسيتين هما: في المحل الأول الماء يشكل موضوعا للتحقيق الانثروبولوجي، فما وراء مركزته كأساس لإعادة الحياة المادية، الماء هو أحد المصادر الأكثر تداخلا في العلاقات الاجتماعية والثقافية، العلاقة الانسان/ البيئة، أساليب تنظيم المناطق، علاقات الانتاج، أشكال

التنسيق المؤسساتية علاقات السلفية، أنساق القيم والهويات، كل ذلك يشكل مفاتيح القراءة وتحليل التسيير الاجتماعي للماء في مختلف طرائقه.

دراسة الماء منطلقين من ماديته- المرئية جدا على الميدان- وتجاوزها بمتابعة الخطوط العديدة التي تعقد حول هذه الثروة المشتركة (الشبكات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية) يمكن أن تقدم منظورا أنثروبولوجيا. الامكانية العلائقية القوية للماء، بعده الكلي، أهليته للمقارنة، الانفتاح على التكامل المعرفي التي يسمح بها، ولكن أيضا الفرصة التي يمنحها للنظر حول الغيرية، المثارة بواسطة المياه في اندماجها الاجتماعي، كل هذه العناصر تجعل من الماء موضوعا مفضلا للتفكير وانتاج المعارف في الأنثروبولوجيا.

مع ذلك هناك مسلمة ثانية، مفادها أن الأنثروبولوجيا لم تتم دائما الامكانيات التي أتينا على ذكرها، ووجدت صعوبة في انتزاع مكانها في الدراسات المكرسة للماء، هذه الدراسات هيمنت عليها، في الواقع لفترة طويلة العلوم الطبيعية، بحجة حكم مسبق وضعي ثابت يجعل من H<sub>2</sub>O مصدرا فيزيائيا بالأفضلية. موضوع أصم وسلي وغير اجتماعي حيثما العلوم الانسانية والاجتماعية خاصة الجغرافيا والتاريخ القديم، وعلم السياسة الحضري، والايكولوجيا السياسية، والدراسات القانونية أو دراسات التنمية-أخذت مكانها بالتدرج، الأنثروبولوجيا ظلت طويلا نسبيا ممثلة أقل. بيان موجز للآداب الفرنسية يقدم لنا حجم هذه الندرة ليس للدراسات التي تتكلم ببساطة عن الماء ولكن الدراسات التي عرفت كيف تجعل من الماء في قلب تحليلاتها وتأملاتها النظرية في الأنثروبولوجيا. "دراسات ريفية" هي المجلة الوحيدة العلمية التي اقترحت ملفين حول الماء سنة 1984 و 1989 حيث كان المساهمون أنثروبولوجيين في قسم كبير منهم. ونجد فيما بعد بشكل نادر بعض المقالات حول الاسئلة المتعلقة بعلم المياه- مثلا- في أعداد مجلة تقنيات وثقافات (1986) أو مجلة Terrain 1989 أو في مجموعات تحمل نظرة إثنولوجية حول التراث الفرنسي (برومبرغر Bromberger 1985) والتي تمحورت بعضها أولا حول التمثلات والمعتقدات والاستعمالات اليومية، مع اسهامات محدودة. وفي المحل الثاني- موضوعة تحت عنوان "الثقافات الأخرى" (لجنة الأنثروبولوجيا والاثنولوجيا الفرنسية 1986) ولكن الأمر يتعلق بحصيلة ضعيفة حيث ظلت بعض المجالات الأنثروبولوجية (الانسان l'homme مثلا) مقصاة.

واقع أن الماء لا يرد ضمن التنوع المتناهي للموضوعات التي كرس لها ملفات من الاكثر كلاسيكية القرابة، العائلة، الأسطورة، الدين العلاقة بين الجنسين، السياسة الى الأقل خصوصا-الرياضة الدم، الموت،

الحيوان الأليف، الجار، يبدو لنا مؤشرا دالا على المكانة المتحفظة التي احتلتها الانثروبولوجيا طويلا في هذا الميدان. (Barbara Casciarri et Mauro Van Aken, 2013).

ولكن فابيان فاتو Fabianne Wateau يذهب الى رأي مخالف فهو يقول: في هذه الأزمنة التي يكثر فيها الضغط على الموارد، استعادت الدراسات حول الماء الانتعاش. سيكون من الخطأ مع ذلك، الاعتقاد أن الانثروبولوجيين لم يهتموا به إلا قليلا على مر التاريخ، أو الاهتمام فقط بجوانبه الأكثر فولكلورية، أعنى بهذا أبعاده الرمزية، الماء يقع في قلب الانثروبولوجيا منذ أمد طويل، منذ سنوات الستينيات على الأقل في إطار رد الفعل دون شك على الكتاب الكشفي ولكن أيضا المثير للجدل للمؤرخ كارل ويتفوجل Karl Wittfogel، "الاستبداد الشرقي"، المطبوع سنة 1957 الذي اقترح ربط أصل السلطات المركزية بمراقبة أنظمة الري (Fabienne Wateau, 2012). كتاب لم يقصر في إثارة النقاش الذي قاده بيار فيدال ناكي P. Vidal- Naquet 1964. الانثروبولوجيون المشهورون الانجلوساكسونيون لسنوات الستينيات والسبعينيات لم يقصروا في اقتراح اجابات متعارضة بشأن موضوع الماء.

منذ 1959 ادموند ليش E. Leach نشر أول مقال Past and present حول نمط من المجتمع الماكي بسايلان Ceylan، ثم سنة 1961 كتابه المشهور Pul Elya دراسة متميزة حول تداخل شبكة ري مع شبكة قرابة. سنة من بعد، ريشارد وودبيري R. B. Woodbury طبع مجموعة من المقالات في الانثروبولوجيا حول حضارة الصحراء (1962) حيث نجد جوابا اجتماعيا لريني ميلبون حول ممارسات الري في العالم. سنة 1970 روبر فيرنيا R. Ferneal رجع الى مسألة السلطة المرتبطة بالري، في العراق هذه المرة، بينما فوماس غليك T. Glick (مؤرخ) طبع كتابه المرجعي حول العمل الوسيط هيرتادو فالوكس بإسبانيا، متسائلا بشكل خاص عن العلاقات الممكنة بين التكنولوجيا والسلطة، ثم هناك المقال المثير لكليفورد غيرتر سنة 1972 The wet and the dry قراءة مقارنة لأنظمة الري الممارسة بيالي والمغرب. في هذا المقال يعالج جيرتر الري التقليدي في سياقين وسط شرق المغرب وجنوب شرق بالي، وهما سياقان مختلفان، ويحاول تبيان كيف أن طرق مختلفة كليا في تسيير الماء يمكنها أن تلقي الضوء على الثقافات المختلفة التي نشأت فيها تلك الطرق رغم أن هناك قواسم بين المغرب وأندونيسيا كالاسلام والنظام التسلسلي والماضي الاستعماري، هناك شيء مختلف بينهما هو المناخ (Clifford Geertz, 1972). والكتاب المهم بمجموعة من المقالات لدوانينغ وجيسون سنة 1974، وفي أوراق

الزوج هانت Hunt حول سياق من الري بالميكسيك، وأوراق ماك فيتانغ Mac Vetting حول قرية بالألب.

وليام ميتشال W. Mitchell سنة 1976، أضاف مساهمته آخذا كاطار البيرو بالأراضي المرتفعة. وسنوات من بعد أرجون أباديراى A. Appadurai قدم ورقة حول تكنولوجيا الماء بالهند، إجابة على جدل أثير بشأن طواحين بعجلة أفقية أو عمودية. لا توجد أسئلة عن الرمزي في هذه المقالات ولكن أسئلة عن الاقتصاد، والسياسي وعلاقات السلطة والتنظيم الاجتماعي، ولكل منطبق على الري. إذا كان الري يعيب في الواقع، على السلم العالمي ما يقرب من 70% من الموارد المائية المنحرفة، فإنه ليس المورد الوحيد الذي يستلهم منه الأنثروبولوجيون في فرنسا في سنوات الثمانينيات 1980 العديد من الأعمال انصبت على عالم الأنهار، حول رجال الماء لقناة ميدي Midi أو حول حوض كارت Quart بشمال فرنسا. لورانس بيرا L. Berard سنة 1982 طبع الكتاب الأول حول التنظيم الاجتماعي في منطقة المستنقعات، مستنقعات دومب Dombes، أعاد زيارتها بعد عشرين سنة انثروبولوجي آخر هو مانسرن Manceron (2005)، بينما جونوفياف بيدوشه G. Bedoucha تقدم لنا عملا كاملا حول مستنقعات بران Brene حيث روابط الماء، في مجموع تشابكاتهما مع المجتمع، ثم حسابها بدقة، ولكن لنعد لحظة الى الري، والى بيدوشه وكتابها القوي حول عمل واحة بتونس 1987 وهو عبارة عن دراسة مونوغرافية رائدة، والى المعهد الخاص لدراسات ريفية" (الانسان والماء) سنة 1984 حيث نذكر مقالي كولات لو كور ولو كور غراندي ميزو ميزون G. le Cour Grand Maison حول ماء الجمعة بسلطنة عمان (1984) ومقال كلود مايشلار حول تسيير المياه لعامل زجاجيات بالسويس. كل هذه الأوراق تتحدث عن دورات الماء، عن التنظيمات بأكثر دقة، عن الحقوق والسلطة والصراعات. نذكر أيضا نصوص كريستيان برومبرغر (1985) وماري كلود بنغو M. C. Pingaud 1986 التي اقترحت الاهتمام بآثار التسيير الاجتماعي للماء، الذي في نفس الوقت يفرق ويجمع. في سنة 1981، مجلد اخر من "دراسات ريفية" انصب على المياه. في الجانب الدولي، الانثروبولوجي الأمريكي ستيفان لوسينغ نشر حول الري بيالي واللاستقرار النسبي للدولة. والانثروبولوجيان البرتغاليان أوناييل B. O'Neill وبيدرو بريستا P. Prista حول ممارسات القراة والري في جبال الشمال (1987 أوناييل) وحول التعاون في استخراج المياه الجوفية بالجنوب (بريست 1989). فقط مجلد للجنة الأعمال التاريخية سنة 1986، تضمن

أوراقا حول הביניים وتمثلات الماء والخرافات. سنوات 1990 و2000 استمرت في تقديم أعمال منتظمة حول الري، نذكر منها عمل ميتشال وغبي Mitchell et Guillet 1994، وميدينا 2001، فاتوا 2002 Wateau، أوبريو Aubriot 2004، فتايتا Ftaita 2006، لابل Labbal 2007 وهول Hall 2008. في فرنسا وجنوب أوروبا ظهرت الأعمال الأولى حول السدود وتنقلات السكان (فوجال Fogel 1997، فاتو 1999 و2008) وحول الماء الشروب i(غارين وغارين Garine et 2002، أوزان Euzen 2010، الماء المعبأ في القارورات شكل موضوع نقاش في سياق شامل (أوزان 2006، ويلك Wilk 2006، كابلان Kaplan 2007). هنا أيضا يقارب الماء في علاقته بالمجتمع من حيث الصراعات، والتوترات، والاقتصاد، والسلطة، التكنولوجيا، الترفيه وشيئا فشيئا سنرى الايكولوجيا، التلوث، والعملية. إن الماء هو دائما "مرآة المجتمع" وهو عنوان لأحد كتب أوليفيا أوبريو O. Aubriot(2004).

نشير الى الظهور الحديث للمجلدات الثلاثة من مجلات تركزت أساسا حول انثروبولوجيا الماء. المجلد الأول ظهر سنة 2007 بالبرتغال تحت عنوان: "استعمالات اجتماعية للماء. انثروبولوجيات مستمدة من الماء" تضمنت تسع مقالات ومقدمة حيث كانت الأوراق دائما حول الري والسدود. والمجلد الثاني الذي أتى على الظهور سنة 2011 تحت عنوان "الانثروبولوجيا والماء" تضمن ثمانية مقالات ومقدمة. انصب ضمن موضوعات كثيرة حول تصادم أنظمة تقليدية ونماذج جديدة مفروضة، وحول المستنقعات ومسألة وفرة وندرة الماء، وغيرها من الموضوعات. والمجلد الثالث بعنوان "الانثروبولوجيا والماء" في جريدة الانثروبولوجيين 2013 الذي ينضاف الى ما يبدو أنه سلسلة جديدة أو اهتمام جديد للانثروبولوجيين بالماء.

في الولايات المتحدة الجمعية الأمريكية للانثروبولوجيا خصصت ملفين لمجموعة من الدراسات حول موضوع الماء، الملف الأول في جانفي 2010، water governance and management، والثاني ظهر في فبراير من نفس السنة تحت عنوان the meaning of water. قدمت فيه أبحاث حول الكوسمولوجيات وتمثلات الماء.

في الواقع، فقط انطلاقا من العشرية الأولى من الألفية الثانية من القرن الواحد والعشرين، يمكننا أن نرحب بظهور جيل جديد من الانثروبولوجيين الذين وضعوا الماء في قلب تحليلاتهم (فاتو wateau 2002، أوبريو Aubriot 2004، ريو Riaux 2006) تأثير التقليد الفرنسي لانثروبولوجيا التقنيات

ظاهر في تلك التحليلات. إنه يسمح للكتاب الذين يركزون انتباههم أساسا على الميدان الريفي وحول أنظمة الري باستكشاف بدقة تعدد الأوجه السوسيوثقافية والسياسية التي ترتبط بالماء، منطلقين من المجموعات السوسيوثقافية لتسييره المحلي. اليوم، الاهتمام المتجدد للأنثروبولوجيا الفرنسية بالماء وإرادة الدخول في نقاش نظري واسع يتأكد أكثر فأكثر - كما بين ذلك ظهور المسارات التعليمية الجامعية المركزة حول هذه المقاربة وكذا عدد الأطروحات المناقشة حول الموضوع في الانثروبولوجيا. هذا الدخول المتأخر للأنثروبولوجيا في حقل النقاشات لازال يتطلب بعض التعمق. في الواقع، التفكير الانثروبولوجي يظل هامشيا في النصوص التي تدرك الماء تحت منظورات خاصة مثل منظور التسويق أو الحكومة، أو أيضا بواسطة تركيز إقليمي (أفريقيا المعاصرة 2010).

وفي المنشورات الأكثر حداثة مثل: الماء في نظر العلوم الانسانية والاجتماعية (لولوان le louan 2007) تظهر الانثروبولوجيا غائبة غيابا كبيرا، نلاحظ زيادة على ذلك بعد فترة طويلة من التهميش، التأكيد النهائي للماء كموضوع للدراسات والأبحاث الانثروبولوجية يتقاطع مع مصادفة اقتصادية وسياسية دولية حيث العديد من الرؤى انصبت على الماء كعنصر استراتيجي في مرحلة العولمة وفي ارتباطه ببروز حالات من الأزمات والتغير المناخي.

الندرة النسبية للتحليلات الانثروبولوجية حول الماء في بانوراما الدراسات باللغة الفرنسية، الى غاية النهضة الحديثة في مرحلة الرأسمالية الشاملة، تبرز العودة الى بعض العقد النقدية لأدب أنجلوفوني أكثر شساعة. ضمن قدرته على وضع علاقة بين الايكولوجي والاجتماعي، الماء كان حاضرا بلا جدال في أعمال انثروبولوجية مختلفة باللغة الانجليزية، ولكنها نادرا ما تجاوزت حدود أهمية قطاعية من أجل استهداف نقاش موسع حول الثقافة والبيئة والتغير. مثلا غيرتز (1972) وأبادوراي Appadurai 1990 كلاهما استهلا ميدانيهما بالاطار الريفي محللان الديناميات الثقافية في علاقتها بالتغير وفي قربها من الماء، الكاتبان كلاهما ركزا من خلال الماء على العلاقات بين الثقافة والبيئة، التي تم تركها جانبا في ما بعد في أعمالهما. لقد درس الماء كوسيط ثقافي ولكنهما أهملتا الأسئلة والتناقضات في العلاقة بين الثقافة والبيئة. تقليد أنثروبولوجي للماء كان قد تطور قبل غيرتز، غالبا مرتبط بعمليات التحديث (بشكل خاص في الري) وبالتغيرات الجذرية وبالصراعات التي تثيرها في سياقات مختلفة بالجنوب. كل واحد بطريقته، ليش 1959، هانت 1976، شامبرز 1980 Chambers وغيرتز الذي تم ذكره، أوضحوا الأوجه السياسية للشبكات التقنية والابعد

العمومية والثقافية للشبكات المائية ورهانات المركزية/ اللامركزية السياسية. حديثا جدا، انثروبولوجيين معاصرون مثل سترونغ Strang 2005، موس Mosse 2008، زوارتنن Zwarteveen و بولنز Boelens 2006، انطلقوا من الماء من أجل اظهار تعقيد الأنظمة الاجتماعية، وعمليات التغير والعلاقات البيئية للفاعلين السياسيين عبر الاستعمالات والبنى التحتية للماء أو أيضا الفعالية الطقسية والتكنولوجية الطقسية في نماذج أخرى لاستعمال الماء. للقيام بذلك، فقد أوضحوا التقاء سياسات التنمية وخطابات وممارسات التحديث مع تخفيض الماء الى H<sub>2</sub>O، كموضوع يسيّر ويقاس.

أعمال العشرين سنة (1990 حتى 2010) تقدم أوجها مشتركة، من الأهمية بمكان ضمن سياقها، بدراسة الماء والثقافة فقد أظهرت التغير الشديد لعمليات التحديث التي توجد في قلب البرادجات الجديدة في فهم العلاقة ثقافة/ بيئة، وتنموضع خارج التقسيم الاستيمولوجي، الضمني حتى في الانثروبولوجيا، بين الطبيعة والثقافة.

في هذا الإطار اسهامات أخرى ذات الحجم تأتي من دراسات التنمية، والتي فتحت السبيل على الأسئلة الأساسية للبناء الاجتماعي للندرة، أو على الأبعاد الثقافية والسياسية للتغير التكنولوجي، المهمة في الديناميات التي تمس الماء في السياقات المحلية.

بفضل المقاربة الاثنوغرافية الميدانية، الانثروبولوجيا استطاعت أن تطور بحثا متجددا بالنسبة لعلوم أخرى، باستبدال المنظور المهيمن لرؤية تابعة وكمية للماء. إنها تقود الانتباه نحو المياه الطفيفة، حول الأنساق والخصومات المحلية، باختصار بالطريقة التي تأخذ بها الديناميات الشاملة شكلا على المستوى المحلي، بطريقة دالة وخصبة، العديد من الكتاب أصيبوا بعدوى أداب وعلوم أخرى بشكل واسع.

هكذا عمل وورستر Worster 1985 حول التاريخ البيئي الذي ينطلق من بناء المجتمعات المائية في الولايات المتحدة والتي تضع الماء كفاعل في البحث التاريخي، قد فتح الطريق نحو دراسات حول الهيدروقاطيات، وايدولوجيات الري، ومعارف الخبراء وأنظمة تسيير الموارد، باعتبارها مواقع غير مرئية لديناميات السلطة في العلاقات المرتبطة بالماء، عمل الجغرافيا وتاريخ البيئة لكايكا M. Kaika (2005) عرف هو أيضا اظهار التجديد المعاصر للماء في تنمية رؤوس الأموال الأوروبية عبر ترجمته الى فيتيش، موضوع أصم، سلمي وخفي، عمله أثر بقوة بواسطة أحد الرواد في التحليلات حول الماء هو إيليش I. Illich 1988 كان من الصعب وضعه داخل القطاعات المعرفية والذي جعل مرثيا "نسيان الماء" كنتيجة

طبيعية لتخفيضه الى H2O وأيضا تحديثه وكتبه خارج العلاقات الاجتماعية والثقافية من أجل التوصل الى تسييره وقياسه باعتباره موضوعا تقنيا.

حساسا لهذه المنظورات المتعددة، الأدب باللغة الانجليزية تأثر أيضا بالأبحاث والمطبوعات الهندية (غالبا غير أكاديمية) المتركة حول الماء كرهان لكفاح محلي بين أنساق المعرفة وأنساق تكنولوجيا قديمة يمكن أن نذكر بصدد هذا الموضوع أعمال أغاروال Agarwal وناران Narain لمركز العلم والبيئة بنيودلهي. الماء، الانهار، والقنوات أعيد موضعتها داخل المجتمع والثقافة ولا يجب أن تقرأ خارج البيئة وديناميات السلطة ولكن في علاقتها مع البحث الأكاديمي ولكن أيضا مع أعمال تكون خارجة عنها، غالبا مرتبطة بالتعبئة السياسية والحركات البيئية أو بمؤسسات أخرى في الجنوب التي تتركز حول أنساق المعارف المحلية وحول نماذج العمل المرتبط بالماء.

هذا الأدب الأنجلو فوتي غير المتجانس ظل في القاع، هامشي في اطار الانتاج الانثروبولوجي الواسع، جزئيا بسبب الانقسام المصطنع بين البحث المسمى أساسيا والبحث المسمى تطبيقيا. هذا الأدب واجه مع ذلك بشكل واسع سياقات التغير الشديد المخطط، وعمليات التحديث والمعالجة، مع خاصيتين مهمتين: نفوذية تكامل معرفي قوي، خاصة أو دينامية للماء، والتركيز على الماء كوسيط بين ميادين سياسية وثقافية أكثر شساعة، داخل عمليات محلية وشاملة معاصرة.

الانثروبولوجيا يبدو أنها تبعد أحيانا الى قطبين قصيين: إما قطب أسلوب انتاج المعارف حول العادات والأعراف والأساطير والكوسمولوجيات، والمعتقدات، والطقوس والرموز، وإما الى ميدان الدراسة المساعدة، الهادفة الى تسهيل التدخلات التطبيقية في الميدان، ما وراء هذين القطبين، البحث الانثروبولوجي حول الماء يفتح إمكانية تحقيق خصب وجديد من أجل فهم الديناميات الثقافية المعاصرة الأكثر شساعة. العديد من الصعوبات التي حالت دون أن يتكون الماء كموضوع مركزي للبحث تكمن في العجز في الانثروبولوجيا -والعلوم الانسانية والاجتماعية بشكل واسع- عن المعالجة بطريقة غير حتمية للعلاقات التاريخية والمعاصرة بين الثقافة والبيئة. تخفيض أو انزال الماء الى موضوع أصم، معطى كشيء بديهي، معزول عن المجتمع، تصوره كعملية تقنية تعالج بواسطة تسيير تقني كل ذلك يساهم في هذا الابتعاد لدراسة الثقافة عن دراسة البيئة بالإضافة الى ذلك، قراءة الثقافات بطريقة غير مباشرة بواسطة الماء، كما هو الغالب في حالة الانثروبولوجيا اليوم، يقتضي مواجهة أسئلة التغير الشديد وكذا التعقيد: الماء يقع في قلب صناعة

التنمية، ندرته والتنافس على مكانه هما رهانان كبيران في سياقات مختلفة، وأخيرا أسئلة الدوام والانتاج الغذائي ترتبط ارتباط وثيقا باستعمالات الماء. باختصار يمكننا التأكيد أن الماء يقع في قلب تناقضات الحداثة.

2-1. الماء كوسيط بين العلاقات الاجتماعية: شبكات الماء: الأثروبولوجيون الذين جعلوا من الماء البؤرة المركزية لتحقيقاتهم لم يقصروا في الإشارة الى قيمته القوية باعتباره وسيطا بين العلاقات الاجتماعية. إذا كان هذا التوكيد يصدق على موضوعات أخرى للبحث، فإنه مما لا يقبل الجدل أن الماء يشكل أحد الموارد الأكثر علائقية، وأن قدرته على الربط توجد تحت أشكال مختلفة، في كل مجتمع تاريخي أو معاصر.

هكذا يتجاوز الماء- من غير أن ينفىها- ماديته كمورد طبيعي والأشواط المرتبطة باستعماله اليومي هي لسياقات تفترض وتكشف عن تعددية معقدة من العلاقات الاجتماعية تكون معالم بالنسبة للبحث الساهر على فك شفرة ديناميات الاندماج الاجتماعي لهذا العنصر. الاشواط المتبعة بواسطة الماء- كمورد طبيعي- تقود بالضرورة الى الأطر العلائقية التي تمكن من معالجة الماء كناقل للاجتماعية، حيث يكشف البحث عن نقاط ارتكاز سياقية. هذه الاخيرة تفتح التحليل على العلاقة، الأساسية في الانثروبولوجيا، بين الطبيعة والثقافة. القدرة العلائقية للماء تقع في نفس الوقت على المستوى الايكولوجي (إنه يسيل، يغذي، يربط العناصر البيئية) وعلى المستوى السوسيوثقافي، من حيث أن سيلانه، عدم توقعيته، وزنه، قوته واستحالة غلقه مثل الارض، كل ذلك فرض حضور أنساق اجتماعية معقدة، مرنة وقابلة للتفاوض.

الماء تكون هكذا كأول وأقدم وسيلة تعبير جماهيرية بفضل وساطته، فإن فاعلية سوسيوثقافية معقدة استطاعت أن تربط جماعات اجتماعية غير منسجمة بواسطة شبكات من التفاعل قوية وبواسطة أنظمة من التعاون، سيلان وتعددية أبعاد وتنوع المياه كون بطريقة ما، واجب التعاون مع مؤسسات مرنة وقابلة للتفاوض حول مورد أساسي، وجه يعود بقوة خلال عمليات التحديث الحالية، حيث نماذج التسيير تتكشف غالبا قاسية، متركزة ومعتمدة وخفية.

هذه الخاصية العلائقية والاجتماعية تردّ الى عدة مستويات. إذا تعلق الأمر أولا بالعلاقات بين الأفراد والجماعات بالنسبة لمجموعة تتقاسم الولوج الى مصادر مائية مشتركة، مدركة على السلم الأكبر micro على سلم اخر، الأمر يتعلق أيضا بالعلاقة بين هؤلاء الأفراد وكيانات أكثر شساعة، بشكل

خاص الدولة. الالتقاء الاستعماري غالبا ما ظهر كالتقاء مائي حيث كان الماء موجها للرقابة على السكان ومناطقهم، وموجها للتخطيط للقنوات المحضرة والمحرة، ولكن أيضا للخيال ولتكوين الآخرين المستعمرين، وجه يستمر في التخطيط للتنمية، الماء الهاجس الرئيس لنظريات التحديث للعلاقات دولة/ مواطن، حضري/ ريفي، رأت أن الماء يلعب دور الوسيط، والأمر سيان بالنسبة للعلاقة بين الفاعلين الدوليين والناميين. الماء في النهاية كان حاسما في مخيال الأمة وكذا في المخيال الجديد للطبيعة حيث  $H_2O$  يطرح كنموذج للهيمنة وللتسيير، خارج الاكراهات المحلية والاجتماعية والتقليدية.

سياسات الماء لها إذن تاريخ طويل، والذي اتخذ شكل أفعاله التنبئية والمباشرة حيث تصلح لها عبارة تكنوسياسية، في معنى التغيرات السياسية والثقافية الجذرية، الممنوحة أو المفروضة، ولكن الصماء والمخفية وراء مهمة التغير التكنولوجي.

وأخيرا الماء يمثل وسيطا على مستويات متعددة من العلاقات الاجتماعية، في سقف من الاستقلالية حيث السلم والشدة يكونان مضخمين في أشكال الواقع المعاصر.

ولكن الأمر يتعلق أيضا بتفاعلات بين ميادين الاجتماعي المتعددة (إيكولوجية، اقتصادية، سياسية، رمزية) حيث أن الماء بالنسبة لها يمكن أن يكشف عن الخاصية المصطنعة للتقسيم الى قطاعات عازلة للواقع الملاحظ، تحليل أنظمة تقليدية من الري، مستندا غالبا على مقارنة للتقنيات كواقعة اجتماعية كلية، كان وسيلة متكيفة جدا بالنسبة للأنثروبولوجيين المستهدفين الاشارة الى الصلات التي تجعل من الماء مرآة مثالية للمجتمع. مادية البنيات التحتية لأنظمة الري هي التي تسمح للأنثروبولوجي من إدراك الاندماج الرائع للماء داخل المنطق الاجتماعي.

### 1-2.1. الماء كمدخل مفضل للديناميات وتدفق للسلطة المعاصرة:

رؤى الباحثين الذين يشتغلون على أسئلة الماء في العالم المعاصر نادرا ما يتجاهلون البعد السياسي للموضوع. البحث عن السير المتوازي لتدفقات الماء وتدفقات السلطة، يكشف عن مقارنة خصبة، ولكن بواسطة قراءة لأنثروبولوجيا سياسية ودينامية، منتبهة للأشكال المختلفة ولسلام السلطة. يبدو أن الأنثروبولوجيا تتجاوز بما المقاربة الماكروسياسية التي ميزت لأمد طويل الدراسات حول الماء. واقع أن الماء يجب أن يكون في قلب عمليات التخطيط الزراعي، والأزمات الزراعية والغذائية، والدوام البيئي، والمنافسة والندرة، يقود بالضرورة الى السياسي.

بيد أن الحمل السياسي الرئيسي للعلاقات والخطابات المرتبطة بالماء يكمن ربما في اللامرئية القسرية للأنظمة السوسيوثقافية المرتبطة بالماء، وهذا بواسطة ثر نزع الطابع السياسي عن سياسات الماء في مرحلة العولمة.

هكذا فإن أنظمة التعاون والاجهزة التقنية والمعارف المحلية تم تعويضها بمعارف الخبرات الجديدة والتسميات الجديدة وقياسات الماء H<sub>2</sub>O، والافكار الجديدة عن المجتمع والمنطقة. والتي هي أيضا جرت خلال القنوات ومع الماء.

الديناميات السياسية التي وجد الانثروبولوجيون أثارها في الماء، لها أشكال متعددة: إنها تكشف تاريخ العلاقات بين الدولة والجماعات المحلية، وتمس عمليات تكون الدولة تماما كعمليات تكون النخب وتنشئ الصراعات التي تعقد حول الماء على عدة مستويات وليس على المستوى الهيدروليكي والعلاقات الاستراتيجية الدولية أو على سلم كبير. الماء يفك شفرة السياسي في رهانات تكوين الهويات، والعلاقات التراتبية، والجدل بين الاستقلالية والتبعية. في افريقيا، في الأرياف السنغالية اتباع أساليب انتقال الماء يشكل مدخلا مفضلا للتحليل أساليب تكوين النخب المحلية وتكوين الدولة.

وأخيرا، في السياق الأوروبي سياسات تسيير الجفاف يجعل من هيئة الموظفين في علاقتهم بمستعملي الموارد، موضوعا لجزء آخر من التدفقات المتوازية للماء والسلطة، وسيط صلب للعلاقات الاجتماعية، الماء الملاحظ في تعقيد انتقاله وفي الفاعلين الذين يتقاسمون، يحفز المستويات المتعددة الأشكال للسياسي التي تحاول الانثروبولوجيا فك شفرتها.

### 3-1. الماء شعار الخيرات المشتركة commons في قلب عمليات التسليح:

مفتاح قراءة أخرى يبرز بشكل واضح عن النظرة المنصبة على المياه في عصر الرأسمالية الشاملة، يتعلق بعمليات الخصخصة، وتعزيز حقوق الولوج، وتحولات مركز الخير المشترك بامتياز الى مركز السلطة الشاملة حيث يشكل الماء موضوعا في سياقات متنوعة.

في الواقع الحالي، نواجه أزمة مهمة، تتعلق بهذه العوالم المدرجة في الموارد المائية، تعرف من قبل البعض في water words : مياه عالمية، بمعنى تشابك متعدد الأبعاد في هذه العلاقات المهيمنة. في الواقع في قلب الزراعة الصناعية وأعمال الزراعة، يستهلك الري القسم الأكبر من المياه المتاحة لمختلف الدول، بتمثله كفييتيش وسلعة كاملة، أصبح الماء الاستثمار صاحب الأولوية للشركات المتعددة الجنسيات . الندرة تدفع

أكثر فأكثر في اتجاه سياسة إلحاحية بينما التغير المناخي ورهانات الدوام تتركز حول الماء، حول تسييره ومخاطر ارتفاع المنافسة والصراعات على المستوى المحلي والعالمي، في نفس الوقت، الماء صار أيقونة بالنسبة للتقنية في الجنوب والشمال، في المطالبة بمشاركة المواطنين في عمليات اتخاذ القرار، ورفض الاستيلاء عليه وخصوصته واختزاله الى حالة السلطة.

من وجهة نظر أنثروبولوجية تحليل فعالية بعض الأنظمة المحلية في تسيير الماء يجعل منه نوعا من النقيضة للنظريات المستلهمة من تراجيديا الخير العام Tragedy of the commons ولكن لنذهب ما وراء هذا التوكيد، المقاربة الانثروبولوجية تشير الى ما يكون الخير العام ليس الماء فقط، ولكن أيضا التفاعل بين المياه والنماذج التفاعلية للاستعمال والعمل، الانتاج المشترك، وأنظمة التعاون، والمعرفة البيئية المحلية، والأنظمة الانتاجية.

فصل المياه عن الممارسات والتمثلات المرتبطة بها يؤدي الى خطر اخفاء ما شكل موضوعا للمراقبة بواسطة نظريات التحديث في التقليد الطويل لهيئة الماء. في قلب النقاش حول الخير المشترك les commons ، التركيز على الماء أدى الى انبثاق في الدراسات حول المياه المحلية أسئلة عديدة حاسمة، ماذا نعني بالجماعة بالنسبة لسياق محلي في إطار نزع محلية وإقليمية المياه؟ ما هي الميادين السياسية التي تتكون حول الماء في إطار منسجم ومعلوم أكثر فأكثر؟ أو أيضا، اية أنماط من الخبرة المائية تتكون اليوم في مجتمع معين في سياق حيث أن رؤية وظيفية جديدة للجماعة تعلن عن رجوعها بقوة الى سياسات التنمية؟ ربما أيضا يتميز الماء مرة أخرى كمورد حيث تتلاشى طبيعته بسبب مستوى تشابكه مع ديناميات الاجتماعي وحيث أن القدرة العلائقية، التي تجعل في المستوى الأول اهتمام أنثروبولوجيا دينامية بالأشكال المعاصرة للتنافس، والصراع، والتفاوض والتبعية التي تعقد في كل مكان حول الولوج الى هذه العنصر، ولكن إذا كانت مهاجمة الماء كخير مشترك من قبل السياسات المافوق ليبرالية المهيمنة تمثل خيطا يتخلل العديد من المساهمات، الاثنوغرافيات المقترحة على سياقات محلية متنوعة جدا تمكن من الذهاب ما وراء نقاش بسيط بين أنصار الماء كخير مشترك وانصار الماء كخير تجاري، ومساءلة فكرة انقسام واضح بين العمومي والخاص، لا بل عدم ابعاد السكان المعنيين فقط بدور الضحايا السلبيين للتسليح. في الواقع عناصر أخرى تتجاوز هذا الانقسام الثنائي: التعددية القانونية، المرونة والقابلية للتفاوض المؤسساتية المطورة بواسطة عديد النماذج

الثقافية لاستعمال الماء، البعد العمومي للأعمال والمعارف حول الماء، الخاصية المجتمعية للنماذج المحلية للماء، تعددية الأبعاد وتنظيم الماء كميدان اجتماعي وثقافي، تختزل غالبا الى قطاع اقتصادي وتقني أحادي البعد. 1-4. الماء مرآة الحداثة: الخيالات، نماذج الطبيعة والثقافة، سياسات المعارف.

ميدان معركة من المعارف يعقد حول الماء، بين من جهة، أنظمة محلية من المعرفة ونماذجها الخاصة بالتعاون، ومن جهة أخرى نظام جديد سوسيوثقافي وواقع سياسي معبر عنه بواسطة مشاريع التحديث، هكذا سياسات المعرفة تحتل مكانا مركزيا في ديناميات الولوج والتوزيع في نظر الالتقاء بين النماذج المائية الحديثة والنماذج المحلية للقياس أو التوزيع، الخلافات وعدم التماثل بين معرفة تقنية وأنظمة معارف أو مهارة محلية ترتبط بالخير المشترك، تمجيد العديد من النماذج المائية، التي تتجابه في الميدان الزراعي في جنوب العالم، الخيرات المعرفية الخاصة والخفية التي تحتفي غالبا وراء جدار التقنية.

كايكا M. Kaika يبين كيف أن ثورات الماء التي جرت في العواصم الأوروبية، التي هي أساس تمثلنا المعاصر للماء H<sub>2</sub>O وكأيقونة لطبيعة مهيم علىها، شكلت تلك الثورات مخيالا جديدا للماء وترجمة للبراديجم المرتبط بالايديولوجيا البروميثية للثقافة التي يمكن أن تحد من العوائق الطبيعية، الشبكات المعاصرة للماء تمتلك سلطة رمزية قوية باعتبارها صلات مع الحداثة ومع مراقبة المنطقة، شرعنة الاجتماع السياسي وابتكار جماعة وطنية، وجوه كلها أصبحت ذات دلالة في واقع ما بعد الاستعمار. هذه الشبكات اللامرئية والموروثة والبنيات التحتية المائية كانت قد اخفيت بالتدرج تحت الأرض، في نفس الوقت من الشبكات الاجتماعية والسياسية التي جرى خصخصتها وحجبها. الماء جرى إعادة تخيله حسب نماذج جديدة.

في العالم العربي هناك دراسات عديدة تتعلق بالماء ولكن من نواحي اقتصادية وتنموية وصناعية وسياسية وغاب تناول الانثروبولوجي له أو كاد. ولا نذكر سوى مقال لأحمد أبو زيد: الماء والبناء الاجتماعي ومفهوم الزمن، في المجلة العربية للثقافة، العدد 36 مارس 1999، وعمل جماعي لمجموعة من الباحثين العرب والأجانب تطرق الى التراث المائي في الشرق الأوسط والمغرب العربي (ميشيل كوت، 2019).

وقد تناول هذا العمل مواضيع عدة نجلها في الآتي:

1- حياة وإدارة والسيطرة على المياه لتوفيرها لغايات الاستخدام البشري.

2- الأنواع المختلفة لاستخدام المياه.

3- إدارة المحددات والسيطرة على المياه الطبيعية.

4-المياه والصحة ونوعية المياه والتمثيلات المرافقة.

5-المياه وما يرتبط بها من معارف ادارية تطبيقية وأساطير ورموز. وهنا يكمن الجاب الانتروبولوجي للماء.

6-المشهديات الطبيعية الثقافية للماء.

#### 1-5. رمزية الماء:

الماء مشحون بحمولة رمزية قوية، فهو موجود في جميع الاساطير والديانات. الطوفان، مثلا الذي له حقيقة تاريخية هو رمز الامتحان الذي يمر به أولئك الذين يريد الله انقاذهم. بشكل مشابه مياه البحر الأحمر هي التي شقها الله على يد موسى من أجل اغراق فرعون وجنده وانقاذ الشعب اليهودي. في الغالب الماء هو رمز التطهير. الاغتسال هو صورة الطهارة الروحية التي نرغب فيها. الاغتسال من الخطايا، ومن هنا يبدأ طقس التعميد الذي تمارسه بعض الكنائس البروتستانتية بالتغطيس الكلي. تغيير الحياة من أجل أن تصبح مسيحيا يقتضي المرور بمياه التطهير.

الاسلام يطلب طقوس التطهير بواسطة الماء قبل الصلاة. فالوضوء مطلوب لكل صلاة بعد الحدث. وفي حال عدم توفر الماء يعوض بالتراب (التيمم).

الهندوس يمارسون أيضا الوضوء قبل الدخول الى المعبد. الغانج وانهار أخرى مقدسة، يتم الغطس فيها من أجل التطهر، ويرمى فيها رماد الموتى. طقوس مشابهة توجد لدى البوذيين في اليابان. خلال أحد الأعياد يجري تمثيل أرواح الأسلاف بواسطة شموع صغيرة توضع في علب ترمى في الماء الجاري ( Michel Malherbe, 1990, p. 71).

ونلفي التعميد أيضا عند الصابئة ركنا أساسا في عقيدتهم وهو يعني الارتماس بالماء الذي يعد سائل الحياة إذ هو "يمنح الجسم العافية، وبقي الانسان من قوى الموت، ويعد بحياة الروح الأبدية وميزته الثانية هي التطهير فمثلما يطرد الماء القذارة والتعفن والنجاسة من الجسم فإنه يطرد الخطيئة، والنجاسة من الروح." (صادق شهيد الطائي ، 2010). بل إن الماء قد عد عند الصابئة المندانيين " إحدى الوسائط التي تصلهم بالاله الواحد، وهو يمثل عندهم شكلا من أشكال طهارة الروح والجسد فهو أداة التعميد الأولى ( لبانة مشوح، 2005، 572).

والماء هو أصل الخلق ورمز الحياة يقول ج. شوفاليي وآلان جيربرانت: "دلالات الماء يمكن أن ترجع الى ثلاثة مهيمنة: مصدر الحياة، ووسيلة تطهير، ومركز للتجدد. هذه الدلالات نجدها في التقاليد القديمة جدا" (J. Chevalier et Alain Gheerbrant, 1995, p. 295).

فمنذ العصور الغابرة كان الماء أصل الخلق فاعتقد الفرس أن الله بدأ الخليقة بالماء ثم أتبعها بالنار والنبات والسماء والأرض، ثم خلق الانسان في اليوم الأخير (لبانة مشوح، 2005، 590). وآمن البابليون أن بداية الكون كانت بحرا حلوا، واعتبر المصريون القدامى أن الماء أصل كل شيء إذ أن رع إله الشمس انبثق من أعماق البحار العميقة والمحيطية بالعالم" (لبانة مشوح، 2005، 591). وفي القرآن الكريم الماء أصل كل موجود يقول تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي". (الأنبياء: الآية: 30)

والماء أخيرا هو رمز للثواب والعقاب. ففي الأساطير الضاربة في القدم عد الماء رمزا للعقاب فالإله أهرمان عند الفرس. "غضب من الفساد الذي يعم العالم فعاقب البشر بإلزامهم التطهر من ذنوبهم وفسادهم وأغرقهم بالمياه التي أصبحت طقسا دينيا يلزمهم الاستحمام بمياه النهر عند بزوغ الشمس وغروبها (زهرة الثابت، 2021، صص 304-320)

والماء في الاسلام رمز للعقاب فقد أغرق الله قوم نوح الكافرين بالطوفان. وبالماء أغرق الله فرعون وجنوده.

وهكذا فإن الماء يحمل عدة دلالات يلخصها لنا جنود دانييلون في قوله: "عبارة الماء الحي لها أربع معاني. بالمعنى الدنيوي تشير الى ماء المنبع في مقابل الماء الرائد، بالمعنى الطقوسي تشير الى ماء التعميد. بالمعنى الانجيلي تشير الى الله مصدر الحياة وأخيرا بالمعنى المسيحي ترمز الى الروح القدس" (Jean Danielon, 1958, p. 335-346)

## 2- الأنتروبولوجيا والسحر:

كتب شوبنهاور عام 1936: يدهشنا الاصرار الذي تتبعت به البشرية دائما أبدا رغم مقدار من الاخفاقات، فكرة السحر، وهذا يطلعنا على جذورها الراسخة، تؤكد الأنتروبولوجيا الاندهاش عينه: فالسحر يتواجد بالفعل دائما أبدا. في أوروبا، هو موجود في اليونان القديمة، حيث نشأت العبارة وهو في طور الزوال في العصر الحديث، لكنه حاضر دائما في المجتمعات الصناعية (ر. ديفيش، 2006، 542).

الانثروبولوجيا اهتمت بالسحر منذ ولادتها، بل إنه الموضوع المحبب لدى بعض الانثروبولوجيين، نفكر هنا في جيمس فريزر الذي كتب أعظم ملحمة في الانثروبولوجيا تحت عنوان: "الغصن الذهبي". دراسة في السحر والدين" وقد اهتم الانثروبولوجيون بالسحر في المجتمعات البدائية، ذلك أن له أهمية كبيرة في هذه المجتمعات، نظرا للوظائف التي يؤديها. كتب هوتون ويبستر: "إن السحرة يشكلون انتلجنسيا المجتمع البدائي. إنهم يعيشون من مصادر أرواحهم ويجب أن يكونوا ثاقبي الفكر من أجل الاجابة على مقتضيات الوسط. يجب أن يضيفوا الى الجدة الطبيعية بعض المعرفة بالظواهر الفيزيائية، وأن يكونوا متمرسين بخصائص النباتات وعادات الحيوانات ومالكين العلم والتقاليد الخاصة بجماعتهم، وعارفين بالطبيعة البشرية والقدرة على الايحاء، جاعلين الحيلة والجرأة في خدمة الخدعة، وأخيرا وهو ما ليس قليل الأهمية، التفوق في الشعوذة. وظيفة السحر تجلب الأشخاص الأكثر طموحا والأكثر قدرة، والتي تكشف لهم عن الطريق المضمون نحو الغنى والامتيازات والتأثير. إنها المهنة الطبيعية للأفراد الموهوبين". (Hutton Webster, 1952, p. 266).

هناك جملة من الانثروبولوجيين الذين أنتجوا أعمالا مهمة في السحر، ربما كان فريزر أول هؤلاء وقد تصور الفكر يمر بثلاث مراحل هي السحر والدين والعلم.

في فرنسا هناك مارسيل موس وهوير اللذان قدما نظرية عامة في السحر. فهما يعرّفان السحر بوصف نظام استدلال ما قبلي، يقوم على ضغط الحاجة" إنه نشاط مكتسب اصطلاحيا ومعترف به اجتماعيا. ولذلك فإن موس يعتبر السحر واقعة اجتماعية كلية. إنه ظاهرة اجتماعية ولا يمكن تحديد معناه إلا بالتمييز بينه وبين ظواهر قريبة منه أو أنها تشترك معه في بعض الجوانب وهذه الظواهر هي الدين والتقنية والعلم.

إننا نجد في السحر الشكل الأولي للتمثلات الاجتماعية التي صارت منذئذ أسس العقل الفردي. إن السحر يتحرر من التمثلات الجماعية، التي تولد عن الحاجة للتأثير في القوى التي لا مجال لفهمها والمرتبطة بالطبيعة أو ببعض الأشخاص وهذه القوى هي المانا (Marcel Mauss et H. Hubert, 1968). يقول مالينوفسكي: من أجل تمييزه (أي السحر) من الدين وصفناه بأنه مجموعة من الأفعال العملية البحتة، يجري القيام بها كوسيلة لتحقيق غاية". (برونيسلاف مالينوفسكي، 2022، ص 102). مالينوفسكي لا يقصر فعل السحر على التعويذة وعلى الطقس بل يركز على الانفعال العاطفي المصاحب للطقس يقول: إن التعبير الدراماتيكي عن الانفعال العاطفي هو جوهر هذا الفعل" هذا الانفعال

العاطفي يكون حبا في سحر الحب أو غضبا في سحر الرعب. ثم هناك عنصر قوة السحر أو بتعبير آخر فاعلية السحر وهي القدرة الموجودة في التعويذة لأن العنصر الأكثر أهمية في السحر هو التعويذة. وعموما فإن مالينوفسكي يذهب الى تحديد ثلاثة عناصر أتمودجية مرتبطة بالاعتقاد بالكفاءة السحرية. يوجد أولا التأثيرات الصوتية، محاكاة الأصوات الطبيعية مثل صفير الريح وهزيم الرعد، وهدير البحر، وأصوات الحيوانات المختلفة. ترمز هذه الأصوات الى ظواهر معينة، ومن تم يعتقد أنها تنتجها بطريقة سحرية، أو أنها تعبر عن حالات عاطفية معينة مرتبطة بالرغبة التي يجب تحقيقها عن طريق السحر. العنصر الثاني هو استخدام الكلمات التي تناشد أو تحدد أو تأمر بالهدف المنشود. وهكذا فإن المشعوذ سوف يذكر كل أعراض المرض الذي يصيب به، أو سوف يصف نهاية ضحيته في الصيغة المميّنة. وفي السحر العلاجي سوف يقدم الساحر صورا لكلمات الصحة المثالية والقوة الجسدية. أو فضلا عن ذلك، يستخدم الساحر الكلمات والجمل التي تعبر عن الانفعال العاطفي تحت الضغط الذي يعمل به سحره، والأداء الذي يعبر عن هذا الانفعال العاطفي، ويتعين على المشعوذ في فترات الغضب والخنق أن يكرر أفعالا مثل: أكسر، ألوي، أحرق، أدمر".

ثالثا: يوجد عنصر في كل تعويذة تقريبا لا يوجد له نظير في الطقس أقصد التلميحيات الأسطورية والاشارات الى الأسلاف وأبطال الثقافة الذين جرى تلقي هذا السحر منهم ( برونيسلاف مالينوفسكي، 2022، ص 111 ).

ويرفض مالينوفسكي تفسير قوة السحري بالمانا: "إن جميع النظريات التي تضع مانا والمفاهيم المماثلة على أساس السحر، تتجه كلها في الاتجاه الخاطئ" الفاعلية الحقيقية للسحر ثابتة فقط في التعويذة وفي طقسها ولا يمكن نقلها في أي شيء، بل يمكن نقلها فقط بإجراءات محددة بدقة. ولا تعمل أبدا بكل الطرائق، ولكن فقط بالطرائق المحددة من قبل التقاليد. إنها لا تظهر نفسها أبدا في قوة بدنية، في حين أن تأثيرها في قوى وامتيازات الانسان مقيد ومحدد بدقة ( برونيسلاف مالينوفسكي، 2022، ص 124 ). كذلك لا يفسر السحر بمفهوم (واكان) الموجود بين هنود أمريكا الشمالية، ولا بمفهوم (أوريندا) الموجودة لدى هنود الإيروكوا.

هناك اختلاف بين الفكرة الأساسية لكل الاعتقادات السحرية هي القوة التقليدية للسحر والقوى والقدرات الأخرى التي يتمتع بها الانسان والطبيعة.

بالنسبة للفرق بين السحر والعلم يقول مالينوفسكي: إن السحر يشبه العلم في كونه يحتوي دائما على هدف محدد يرتبط ارتباطا وثيقا بالغرائز، والاحتياجات والمساعي البشرية، ويجري توجيه الفن السحري نحو تحقيق الأهداف العملية. وهو مثل الفنون والحرف الأخرى، محكوم أيضا بجانب نظري، بمنظومة من المبادئ التي تملئ الأسلوب الذي يجب أن يؤدي فيه الفعل ليكون فعالا... يمكننا أن سمي السحر بأنه علم زائف" ( برونيسلاف مالينوفسكي، 2022، ص 126 - 127) كما ذهب الى ذلك جيمس فريزر.

أما السحر والدين فيقول مالينوفسكي: "ينشأ كل من السحر والدين، ويؤدي وظيفته، في حالات التوتر العاطفي مثل: أزمات الحياة، والتعثر في المساعي المهمة، والموت والتكريس والشروع في الطقوس السرية القبلية، وشقاء الحب، والكره الذي لا يشفي العليل. يفتح كل من السحر والدين مجالا للهروب من مثل هذه المواقف وتلك المآزق، الذي لا يوجد مخرج عملي منها إلا من خلال الطقوس والايمان بمجال فوق طبيعي، يشتمل هذا المجال، في الدين على الاعتقاد بالأشباح والأرواح والهواجس البدائية للعناية الالهية وحماة الأسرار القبلية، وفي السحر، يشتمل على القوة البدائية وفاعلية السحر. يستند كل من السحر والدين على نحو كامل الى التقاليد الأسطورية، وبوجود كل منهما أيضا في جو من المعجزات، وفي إظهار مطرد لقدرتها العاملة العجيبة. وكلاهما محاط بالمحرمات والشعائر التي تميز أعمالهما عن أعمال العالم الديني.

ولكن الفن العملي للسحر لديه تقنيته المحدودة والمحددة: التعويذة، والطقس، وتشكل حالة المؤذي دائما الركن الثالث، أما الدين، مع جوانبه وأغراضه المعقدة ليس لديه مثل هذه التقنية البسيطة، ولا يمكن رؤية وحدته، لا في شكل أعماله ولا حتى في تجانس موضوعه، بل في الوظيفة التي يؤديها وفي قيمة معتقده وطقسه. وفضلا عن ذلك، إن الاعتقاد بالسحر المتوافق مع طبيعته العملية السهلة، بسيط للغاية وفي الدين، لدينا عالم فوق طبيعي كامل من الايمان" ( برونيسلاف مالينوفسكي، 2022، ص 126-127 ).

ويمكن أن نبين الفرق بين الثلاثي السحر الدين العلم إذا نظرنا الى الوظيفة الثقافية لكل منهم. العلم يعرف الانسان بمحيطه عن طريق إتاحة استخدام قوى الطبيعة له، وهكذا فإن العلم، المعرفة البدائية، يضيف على الانسان مزية بيولوجية كبيرة جدا، واضعا إياه جدا فوق بقية الخلق كافة.

الدين يؤسس ويرسخ ويعزز جميع الاتجاهات العقلية القيمة، مثل احلال التقاليد والانسجام مع البيئة، والشجاعة والثقة في مواجهة الصعاب وفي مشهد الموت. إن هذا الاعتقاد الذي يتم تجسيده والمحافظة

عليه عن طريق العبادة والشعائر له قيمة بيولوجية كبيرة جدا، وكذلك يوحي للإنسان البدائي بالحقيقة، بالمعنى الواسع والعملي للكلمة.

أما السحر فيمد الانسان البدائي بعدد من الأفعال الطقسية والمعتقدات الجاهزة، مع تقنية ذهنية وعملية محددة تعمل على سد الفجوات الخطيرة في كل نشاط مهم أو موقف حرج، إن وظيفة السحر هي إضفاء الطابع الطقسي على تفاعل الانسان، وتعزيز ايمانه بانتصار الأمل على الخوف ( برونياسلاف مالينوفسكي، 2022، ص 128-129 ).

إدوارد إيفانز بريتشارد ميز بين السحر والعرافة، فالسحر يشير الى مهارات طقوسية مكتسبة بعد الدخول في مجتمع سري يهدف الى الإساءة من خلال استعمال مواد وعبارات، والعرافة هي القدرة اللاواعية واللاإرادية التي يتمتع بها بعض الأشخاص. هذه الثنائية، الواضحة عند شعوب الأزندي الذين درسهم إيفانز بريتشارد نجدها أيضا في العديد من الثقافات الافريقية بشكل خاص. (جان فراسنوا دورتيه، 2011، ص 466)

كلود ليفي - ستروس عالج السحر في نصين: الأول: الساحر وسحره. والثاني "الفعالية الرمزية" في كتابه الأنثروبولوجيا البنوية" (كلود ليفي-ستروس، 1995). إن بنوية ليفي - ستروس قد حلت الشعائر والمعارف السحرية بوصفها أنظمة إشارية تقوم وظيفتها الأول على التواصل. وقد أشار ليفي - ستروس الى فعالية السحر لأن الأمر يتعلق باعتقاد جماعي تكون رموزه فاعلة: فالمفتون يقع مريضا لأنه قرأ علامات فنتته عبر موقف أعضاء الجماعة الاخرين تجاهه. كما تكشف الممارسات السحرية عن تنظيم الكون وسط ثقافة ما.

هكذا يستدعي خطاب الشافي التمثلات التي تشكل موضوع العقائد الجماعية. ولم يتردد ليفي - ستروس عن مقارنة خطوات الشافي بما يقوم به المحلل النفسي في المجتمعات الحديثة وقد استطاع ليفي - ستروس البرهنة بأن بنية الأنظمة التي تأخذ بالسحر (تصنيفات الشعوب الأصلية ونظامها الكوني) هي البنية نفسها التي نجدها في العلوم الطبيعية، وحدها المضامين هي التي تختلف. هكذا لا نجد غضاضة في مقارنة السحر مع العلم الحديث، ولكن مع احتمال الوصول الى نتائج غير مؤكدة. (جان فراسنوا دورتيه، 2011، ص 468).

يُجبل السحر باعتباره أحد مفاهيم الخطاب الأنثروبولوجي المعاصر على مجموعة من الممارسات والتمثيلات التي نادرا ما يتم تحديدها. وقد تأسس استعمال هذا المصطلح من باب التعريف على نوع من الموضعة الخلافية حيث تمت مقارنة السحر بمجموعتين من الممارسات هما العلم والدين. ففي هذه الموضعة يبدو وكأنه من الثابت أن هذه المصطلحات الثلاثة ( العلم، الدين، السحر) تشكل حقلًا دلاليًا يقع السحر فيه بين العلم والدين، بين مصطلحين قطبيين يؤخذ تقابلهما على أنه تقابل واضح وجلي.

لدى قراءة كتابات الأنثروبولوجيين نحس كأن طموحهم لا يتجاوز تحديد المسافة الفاصلة بين السحر والعلم من جهة، والدين من جهة أخرى. وبذلك تراكمت تعريفات السحر السالبة دون أن تجلو غموض هذا المفهوم المرتجل فالسحر في تلك التعريفات إما علم مجهض لا عقلية له أو دين شاذ لا لاهوت له.

فالسحر نظر إليه على أنه ممارسات غرائبية أو منحدره من ديانات مصغرة لا تحظى بالاحترام، أو علوم منسية ومكذبة أو ضرب من علم ما وراء النفس (بول جوربون، وجنفييف دلبوس، 2007، ص 11-12).

#### مبادئ السحر في نظرية فريزر:

إذا حللنا مبادئ الفكر التي يقوم عليها السحر فإنه يحتمل أن نجدها تنحصر في مبدئين اثنين: الأول هو أن الشبيه ينتج الشبيه أو أن المعلول يشبه علته، والثاني هو أن الأشياء التي كانت متصلة بعضها ببعض في وقت ما تستمر في التأثير بعضها في بعض من بعيد بعد أن تنفصل فيزيقيا. ويمكن أن نسمي المبدأ الأول "قانون التشابه" وأن نسمي المبدأ الثاني "قانون الاتصال" ومن المبدأ الأول، أي قانون التشابه يستنتج الساحر أن في استطاعته تحقيق الاهداف والنتائج التي يريدتها عن طريق محاكاتها أو تقليدها، ومن المبدأ الثاني يستنتج أن كل ما يفعله بالنسبة لأي شيء مادي سوف يؤثر تأثيرا مماثلا على الشخص الذي كان هذا الشيء متصلا به في وقت من الأوقات سواء أكان يؤلف جزءا من جسمه أو لا يؤلف. وعلى ذلك يمكن أن نسمي التعاويذ والطلاسم التي تقوم على قانون التشابه بالسحر التشاكلي، بينما نسمي تلك التي تستند الى قانون الاتصال بالسحر الإتصالي. والساحر يسلم بأن قانوني السحر يصدقان على كل شيء وليس على السلوك الانساني فقط (سير جيمس فريزر، 1971، 104-105).

وربما كان أكثر صور استخدام مبدأ التشابه شيوعا وانتشارا هي المحاولات التي يقوم بها كثير من الناس في مختلف العصور لإلحاق الأذى أو الدمار بأعدائهم عن طريق إيذاء أو تدمير صورهم. اعتقادا منهم أن ما يلحق بالصورة من شر وضرر يلحق بصاحبها، وأنه حين يتم تدمير الصورة يموت الاصل بالضرورة. وربما كان أشهر مثل للسحر الإتصالي هو التعاطف السحري الذي يفترض وجوده بين الانسان وأجزاء جسمه كالشعر والأظافر حتى بعد أن تنفصل هذه الأجزاء عنه بحيث إن وقوعها في يد شخص آخر يجعله خاضعا لإرادته مهما بعدت المسافة بينهما.

### السحر والدين والعلم:

يذهب فريزر الى اعتبار السحر مرحلة سابقة على الدين الذي تأتي بعده مرحلة العلم. والدين يعرفه بقوله: "الدين في نظري هو التزلف والتقرب الى القوى العليا التي تفوق الانسان والتي يعتقد أنها توجه سير الطبيعة والحياة البشرية وتتحكم فيهما" (سير جيمس فريزر ، 1971 ، 217-218). وعلى أساس هذا التعريف يتألف الدين من عنصرين أحدهما نظري وهو الايمان في وجود قوى أعلى وأسمى من الانسان، والآخر عملي وهو محاولة استمالة هذه القوى وارضائها. وفي الدين لا بد من الشعائر والطقوس وإلا فإنه يبقى مجرد لاهوت.

والسحر يختلف عن الدين من حيث أنه لا يقوم على الايمان في قوى عليا. ويختلف عن العلم من حيث أن المبدأين الذين أتينا على ذكرهما وهما مبدأن من مبادئ تداعي الأفكار (التشابه، التضاد، الاقتران)، يجري تطبيقها في السحر بطريقة خاطئة، فخطأ المبدأ الأول هو الاعتقاد أن الأشياء المتشابهة متطابقة، وخطأ المبدأ الثاني (السحر الإتصالي) هو الاعتقاد أن الأشياء بعد انفصالها تظل متصلة فيما بينها. ولذلك فإن السحر في نظر فريزر هو علم زائف كاذب بقدر ما هو فن عقيم.

### التحكم في المطر عن طريق السحر:

من أهم الأشياء التي يقف الساحر العمومي نفسه لتحقيقها من أجل صالح القبيلة التحكم في الجو، وبوجه خاص ضمان توفير مقادير كافية من المطر، على اعتبار أن الماء هو إحدى ضروريات الحياة فإن معظم البلاد تعتمد على الأمطار لسد حاجاتها منه، وبدون المطر فإن النبات يذبل كما يضعف الحيوان والانسان حتى الموت. ومن هنا كان صانع المطر يعتبر من أهم الشخصيات في المجتمعات البدائية، وكثيرا ما توجد طبقة خاصة من السحرة يتولى أفرادها مهمة تنظيم الأمطار التي تسقط من السماء ويستخدمون في

محاولتهم القيام بمهام وظيفتهم في العادة، وإن لم يكن دائما نفس الطرق والأساليب التي تستند الى مبدأ السحر التشاكلي. فإذا أرادوا مثلا أن يسقط المطر قاموا بمحاكاة سقوطه عن طريق رش بعض الماء أو محاكاة عملية تجمع الغيوم والسحب، أما إذا كانوا يريدون إيقافه واحداث الجذب فإنهم يتفادون الاقتراب من الماء ويعمدون الى الدفء والى النار كي تجنب الرطوبة الزائدة عن الحد.

مثال ذلك أنه حين كانت الحاجة للمطر تشتد في إحدى القرى القريبة من دوريات في روسيا كان ثلاثة رجال يتسلقون أشجار الشربين في إحدى الغابات القديمة المقدسة. فيضرب أحدهم بمطرقة على إبريق أو على صندوق مقلدا صوت الرعد. ويحك الثاني قطعتين من الخشب إحداها بالأخرى، فيتطاير منهما الشرر محاكيا بذلك البرق، بينما يأخذ الثالث، وكان يعرف بصانع المطر في رش الماء حوله من إحدى الأواني مستخدما في ذلك حزمة من أغصان الشجر.

وكانت النساء والفتيات في قرية بوسكا يخرجن في أثناء الليل ويسرن عاريات تماما حتى مشارف القرية حيث يصبين الماء على الارض فيسقط المطر وينتهي الجذب.

وفي جيلولو وهي جزيرة كبيرة تقع غربي غينيا الجديدة، يغمس الساحر غصن شجرة من نوع معين بالذات في الماء ثم ينثر الماء بعد ذلك على الأرض فيسقط المطر. وعند هنود الأوماها في أمريكا الشمالية حين تذبل الحنطة نتيجة شح الامطار يملأ أعضاء جمعية الجاموس المقدسة إناء كبيرا بالماء ويرقصون حوله أربع مرات، ثم يتناول أحدهم قليلا من الماء في فمه وينفثه في الهواء على شكل رذاذ خفيف يشبه الضباب أو قطرات المطر، ثم يقلب الاناء فيسكب الماء ويلقي الراقصون بأنفسهم على الأرض يشربون بأفواههم الماء عن آخره ويلطخون وجوههم بالطين ثم يلقون الماء في اخر الأمر في الهواء على شكل ضباب خفيف وبذلك ينقذون الحنطة من الخطر.

وفي الممارسات المتعلقة بالاستمطار يختلط الدين بالسحر. الدين يتمثل في الصلاة التي تلجأ إليها بعض الأقوام من أجل استعطاف الالهة وطلب الأمطار، والسحر يرتبط بالطقوس والتعاويذ والشعائر التي ترافق الصلاة.

ومن أجل إيقاف المطر يذكر المؤرخ العربي المقرئ فيها يذكر فريزر طريقة كان يقال إنها كانت شائعة بين إحدى قبائل البدو في حضرموت وهي قبيلة القمر فقد كان الناس هناك يقطعون غصن شجرة معينة في الصحراء ويشعلون فيه النار ثم يرشون الماء بعد ذلك على الخشب المشتعل فيقل هطول المطر حتى

يتوقف تماما مثلما تحتفي المياه التي ترش على الخشب المتوهج. وفيما عدا العرب فإن كثيرا من الشعوب الأخرى كانت تستخدم النار كوسيلة لمنع سقوط المطر (سير جيمس فريزر ، 1971 ، 254).  
ويذكر فريزر أن ثمة اعتقادا شائعا بأن الأطفال التوائم يتمتعون بقوى سحرية على الطبيعة وبخاصة المطر والطقس. وعند بعض الشعوب إذا دهن التوائم وجوههم باللون الأسود ثم غسلوها بالماء رمز للمطر المتساقط من السحب الدكناء.

ويذكر فريزر ممارسات أخرى لشعوب في مناطق مختلفة من أجل انزال المطر أو إيقافه وواضح أن تلك الممارسات السحرية تقوم على مبدأ الشبيه ينتج التشبيه.

**إدموند دوتي والممارسات السحرية المتصلة بالماء:** يعتبر إدموند دوتي (1867-1926) من أوائل الباحثين الكولونيين الذين اهتموا بدراسة المجتمع المغربي (عبد الغني منديب، 2006، ص 30) (أو المغربي) وقد ركز هذا الباحث على دراسة المعتقدات والممارسات الدينية، ويعتبر كتابه السحر والدين بإفريقيا الشمالية أحد أكبر المؤلفات التي وضعت حول المعتقدات الدينية في هذه المنطقة خلال الفترة الكولونiale. فيما يتعلق بالسحر يطبق دوتي نظرية السحر لفريزر وإن كان يرى عدم كفايتها بتغطية جميع مظاهر السحر وهو يذكر مصطلح السحر الشبطني الى جانب السحر التعاطفي الذي قال به فريزر ولا يرى اختلافا بينهما ولكنه يرى أن قاعدتي المجاورة والمشابهة اللتين تحدث عنها فريزر عاجزة عن تفسير مجال السحر بكامله، فلماذا تحول العشبة التي يتحدث عنها ابن الحاج الرصاص الى ذهب وليس أي عشبة أخرى؟ ولماذا يجمي قلب الذئب من الجن؟ ليس ثمة من شك أن ثمة تداع للأفكار غريب بحيث ينقلت من ادراكنا بل قد يكون من الممكن أيضا أن يكون التداعي واقعا لا بين ادراكات وإنما بين هذه الأخيرة وحالات عاطفية مصاحبة لها أو تكون صاحبته مرة، وفي هذه الحالة فإن العلاقة لا معنى لها لدينا (إدمون دوطي، 2008، ص 206).

وهو يرى أن قانون التناقض يمكن ارجاعه عقلا الى قانون المشابه، ذلك أن الشبيه الذي يطرد الشبيه يحيل الى نقيضه. والسحر التعاطفي في نظره يكون السحر الأبيض.

وبخصوص علاقة السحر بالدين، يرى دوتي أنهما متوازيان وليس بينهما سوى اختلاف ذي طبيعة قانونية وشرعية. أما العلم فهو من هذا المنظور يوجد خارجهما. فالسحر كان مختلطا بالدين، فالأضحية والوضوء والمحرمات والذكر كلها ممارسات ذات طابع سحري بدائي، الى جانب ذلك، قبل الدين بممارسات

ذات طبيعة سحرية محضة، ملونا إياها ببساطة بيافاطة توحيدية، فاليقشة والكتابة الاسلاميتين تنتمي لهذه الفئة وهما من ثم بالتأكيد سحر ديني، بل إن هذا السحر قد سعى الى مكافحة السحر الأسود مستوحيا طرائقه. إنه شكل من أشكال صراع الاله مع الشيطان (إدمون دوطي، 2008، ص 222).

فالسحر فعلا. من منظور الفقهاء المسلمين، يتمثل في تحويل خصائص الأشياء وواقعها لكن إذا كانت هذه التحولات تتم بفضل الآيات القرآنية أو بفضائل الاسماء الحسنى فلا مجال ثمة للفكر وليس الأمر بمحرم ولا يمكن عقاب الفاعل إلا إذا نجم عن ذلك ضرر، أو كان ثمة نية في الاضرار بالغير.

"لقد أوحى النبي محمد نفسه باستعمال الرقية أي الأذكار السحرية ولم يحرم منها إلا ما كان ذا طابع اشراكي (...). فالتعويدة والعزيمة إذن معترف بهما صراحة في الاسلام، إذا نحن برهننا على أن اسم الرقية يطلق مجازا على الدعاء" (إدمون دوطي، 2008، ص 223). لقد تم أسلمة السحر لكي يصبح حلالا. السحر الخالص تم قبوله رسميا في الاسلام، والسحر لا يتميز هنا عن الدين إلا بكونه محظورا ولا يتم باسم الله. ومقابل السحر الديني يوجد السحر الأسود، أي السحر بمعناه الضيق وهو ممارسة حرمتها النصوص تحريما.

فيما يتعلق بالممارسات السحرية والماء، يذكر دوتي أن في منطقة القبائل الصغرى بالجزائر، لكي تتم مداواة قرحة المعدة أو ورم ما يؤخذ شيء من دم المريض، وقطع من أطافره وخصلات شعره، وتجمع في رزمة ثوب وتثبت في مجرى النهر. والناس يعتقدون أنهم بالقيام بذلك سوف يتم تطهير الداء بالماء الجاري. وفي بلاد المزاب ببوسعادة، تجمع النساء اليهوديات خصلات شعرهن الساقطة في كومة وترمين بها في مجرى الماء اعتقادا منهن أن حركة الماء الزلال تساهم بتماسها مع الشعر الميت في الحفاظ الجيد على شعرهن (إدمون دوطي، 2008، ص 51).

والشفاء من السحر يتم أيضا بالماء. فلنكي يتم منع فتاة من الزواج ترمى بالماء الذي استعمل في غسل الميت، وحين تريد الفتاة فك هذا السحر تسير الى شط البحر، وهناك تتجرد كلية من ثيابها وتعموم في سبع موجات متوالية شاربة في كل موجة شيئا من الماء.

وقد لاحظ دوتي أن ماء المطر مفعول سحري، الى جانب ماء الزهر، وماء العيون. ولمنع نزول المطر تسرق مرآة من بيت وتوجه نحو الشمس، وحينها يغدو الجو صحوا، ولا شك أننا نلاحظ هنا قاعدة المشاهدة

التي تحدث عنها فريرز. فالمرآة تمثل الصفاء وعندما توجه نحو الشمس الدافئة فإنها تجعل السماء صافية مثلها.

#### قائمة المراجع

أ- باللغة الأجنبية

- 1-Ballestero Andrea,2019, **The anthropology of water**, Annual review of anthropology , anthro.annualreviews.org.
- 2-Bromberger Christian, Jean-Noel-Pelen,1985, **Usages et images de l'eau** , in ; le monde alpin et Merodanien, Revue régionale d'étymologie , N4.
- 3-Casciarri Barbara et Mauro Van Aken, 2013, **Anthropologie et eau (x) affaires globales , eaux locales et feux cultures** , journal des anthropologues
- 4-Chevalier J.et Alain Gheerbrant,1995, **Dictionnaire des symboles** ; éditions Robert Laffont, Paris.
- 5-Danielon Jean,1958, **le symbolisme de l'eau vive** , in : Revue de sciences religieuses , tome 32, fascicule 4.
- 6-Geertz Clifford,1972, **The wet and the dry. Traditional irrigation in Bali and Morocco**, in ; Human ecology, Vol. 1, N1.
- 7- Malherbe Michel,1990, **Les religions de l'humanité**, Criterion, Paris.
- 8-Mauss Marcel et H. Hubert,1968, **Esquisse d'une théorie générale de la magie** , in Marcel Mauss, Sociologie et anthropologie , 4 éditions , Puf, Paris
- 9-Wateau Fabienne,2012, **A fleur d'eau : synthèses**, Hal open science, <https://shs.hal.science/hals.hs>.
- 10-wateau Fabienne,2023, **Eau partagée , eau libre, bien commun ? de quelques principes et logiques de partage a une frontière luso-espagnole droits**, sciences et environnement, ( en ligne), <http://shs.hal.science/halshs>
- 11- Webster Hutton, 1952,**la magie dans les sociétés primitives**, trad. De jean goullard, les éditions Payot, Paris .
- 12-Wilfong Mathew et al,2023, **Introduction : applying anthropology to water**, Human organization, vol. 82, N°3.

ب- باللغة العربية

- 13- إدمون دوطي، 2008، السحر والدين في إفريقيا الشمالية، تر.، فريد الزاهي، منشورات مرسم ، الرباط.
- 14- الثابت زهرة ، 2021، رمزيتا الماء والنار في الأساطير والأديان، مجلة نقد وتنوير، العدد 8.
- 15- جوريون بول ، وجنيفيف دلبوس، 2007، ارتجالية مفهوم السحر في الخطاب الأنثروبولوجي، في بول جوريون وآخرون، أبحاث في السحر، تر. محمد أسليم إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب.
- 16- دورتيه جان فرانسوا (إشراف)، 2011، معجم العلوم الإنسانية، تر، جورج كتورة، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2.
- 17- ديفيش ر، 2006، مادة السحر، في: بيار بونت وميشال إيزار، معجم الأنثولوجيا والأنثروبولوجيا، المعهد العالي العربي للترجمة، الجزائر، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1.
- 18- الطائي صادق شهيد، 2010، سحر الفضة .. سر الماء، دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصائبة بالعراق ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى.
- 19- عبد الغني منديب، 2006، الدين والمجتمع، دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، إفريقيا الشرق- الدار البيضاء، المغرب.
- 20- فريزر سير جيمس ، 1971، الغصن الذهبي، تر. أحمد أبو زيد، ج1، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- 21- كوت ميشيل ، 2019، التراث الثقافي للماء. التراث الثقافي للماء في الشرق الأوسط والمغرب العربي، المجلس الدولي للآثار والمواقع، فرنسا.
- 22- ليفي-ستروس كلود ، 1995، الإناسة البنائية، تر. حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1.
- 23- مالمينوفسكي برونيسلاف، 2022، السحر والعلم والدين ومقالات أخرى، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، .
- 24-- مشوح لبانة، 2005، الماء في ثقافة الشعوب، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد 59، ج2